سلسلة الكتب العزمية

السلفيون وصناعة الجهل

الكتاب الخامس

الدكتور محمد إسحق عبد الرسول

لجنة البحوث والدراسات
بالطريقة العزمية

جميع حقوق الطبع والنشر والتصوير والاقتباس

والترجمة والنقل

محفوظة لمشيخة الطريقة العزمية

الطبعة الأولى

ربيع أول ١٤٣٣هـ - فبراير ٢٠١٢م

عنوان الكتاب	**السلفيون وصناعة الجهل**
المـؤلـــــف	**الدكتور محمد إسحق عبد الرسول**
النـاشـــــــر	**دار الكتاب الصوفى**
عنوان الناشر	**٤ شارع الشيخ حمزة متفرع من شارع بورسعيد- السيدة زينب - القاهرة**
رقم التليفـون	**٠٢/٢٣٩٠١٠٣٠**
رقم الإيـــداع	**٢٠١٢/٣٦٤٨م**
الترقيم الدولى	**٠ - ٩٠ - ٥٢٧٣ - ٩٧٧**

مقدمة

السلفية والسلفيون والتعريف بهما

الحمد لله رب العالمين، الذى هدانا للإسلام، وأكرمنا بالإيمان، وبصرنا فى الدين، وشرفنا باليقين.

والصلاة والسلام على السيد الأكمل سيدنا ومولانا محمد.

اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وآله.. شجرة النبوة، وموضع الرسالة، أما بعد:

منذ سنوات قليلة كان الشارع السياسى فى مصر يتألف من أحزاب وقوى سياسية وفصيل دينى واحد – أو هكذا يبدون – وهم الإخوان المسلمون، غير أنه وفجأة وعلى غير توقع للإنسان العادى ظهر على السطح فئة السلفيين وأصبحت لهم فضائيات تعد بالعشرات وظهر فيها من ظهر من شيوخ السلفية حتى أصبحوا فى ظهورهم هذا ينافسون نجوم السينما فى كثرة ظهورهم على الشاشة الفضية.

وإذا تأمل المرء أحاديث هؤلاء الناس سوف يجد أنهم يوهمون من يشاهدهم أو يستمع إليهم أنهم (الفرقة الناجية)، والتى ذكرها عبد القادر البغدادى فى كتابه الشهير (الفرْق بين الفرق). وأغلب الظن أنهم يتوهمون أنهم تلك الفرقة.

ولأن المصطلح قد لا يبدو مفهومًا تمام الفهم لدى العموم من الناس ربما لأنه من المصطلحات الوافدة والجديدة. لذا فإننا

سوف نعتمد فى فهم كلٍّ من (السلفية) و(السلفيين) على الكاتب الإسلامى الدكتور محمد عمارة، حتى يتبين القارئ العادى طبيعة مصطلح (السلفية) ومن هم (السلفيون) نقلاً عن (موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة) التى أصدرتها وزارة الأوقاف سنة ٢٠٠١ من ص٣٠٢ – ٣٠٦.

السلفية

لغة: نسبة إلى السلف، والسلف هو الماضى، والسالف: المتقدم (لسان العرب).

وفى القرآن الكريم: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ (البقرة: ٢٧٥).

واصطلاحًا: هى الرجوع فى الأحكام الشرعية إلى منابع الاسلام الأولى، أى: الكتاب والسنة، مع إهدار ما سواهما.

ومع وضوح هذا التعريف للسلفية، تعددت فصائل تيارها فى تراثنا وفكرنا الإسلامى، فكل السلفيين يعودون فى فهم الدين إلى الكتاب والسنة، لكن منهم فصيلاً يقف فى الفهم عند ظواهر النصوص، ومنهم من يُعْمِلُ العقل فى الفهم، ومن الذين يُعملون العقل: مسرف فى التأويل، أو متوسط، أو مقتصد.

ومن السلفيين: أهل جمود وتقليد، ومنهم أهل التجديد، الذين يعودون إلى المنابع لاستلهامها فى الاجتهاد لواقعهم الجديد.

ومِنَ السلفيين مَنْ سلفُهم – ماضيهم – فكر عصر الازدهار

الحضارى والخلق والإبداع ، ومنهم مَنْ سلفُهم – ماضيهم – فكر عصر التراجع الحضارى والتقليد والجمود.

ومن السلفيين مقلدون لكل التراث، دونما تمييز بين الفكر وبين التجارب، ودونما تمييز فى الفكر بين الثوابت وبين المتغيرات، ومنهم مستلهمون لثوابت التراث، مع الاسترشاد بتجارب ومتغيرات التاريخ.

ومن السلفيين من يعيشون فى الماضى، ومنهم من يوازن بين السلف الماضى وبين الحاضر والمعاصر.

وهذا التنوع الذى يقترب أحياناً من درجة التناقض، فى مناهج فصائل السلفية، هو الذى أحاط مضامين هذا المصطلح، وخاصة فى فكرنا المعاصر بكثير من الغموض، وسوء الفهم، بل وسوء الظن أيضًا.

ومن أشهر المدارس الفكرية التى حاولت الاستئثار، فى تراثنا، بمصطلح السلفية هى مدرسة أهل الحديث التى هالها الوافد اليونانى – فلسفة ومنطقًا – وأفزعتها عقلانية اليونان المنفلتة من النقل الدينى، فاعتصمت بالنصوص، مقدمة ظواهرها، بل وحتى ضعيفها على الرأى والقياس والتأويل وغيرها من ثمرات النظر العقلى، وهى المدرسة التى انعقدت زعامتها للإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ – ٢٤١هـ / ٧٨٠ – ٨٥٥م) حتى ليحسبها البعض كل السلفية، بينما هى فى الحقيقة

واحدة من فصائل هذا الاتجاه.

وفى منهاج هذه المدرسة يعلو النص على غيره ، بل ويكاد أن ينفرد بالحجية، فالنص، وفتوى الصحابة، والمختار من فتوى الصحابة عند اختلافهم، والحديث المرسل والضعيف، ثم القياس للضرورة هى الأصول الخمسة التى حددها الإمام أحمد بن حنبل أركانًا لمنهج هذه المدرسة رافضًا بذلك الرأى، والقياس، والتأويل، والذوق، والعقل، والسببية فى الفكر الدينى.

وعن هذا المنهج النصوصى (للسلفية النصوصية) – كما صاغه الإمام أحمد بن حنبل – يقول واحد من أعلامها هو الإمام ابن القيم الجوزية (٦٩١ – ٧٥١هـ / ١٢٩٢ – ١٣٥٠م):

الأصل الأول: النصوص فإذا وجد النص أفتى به ولم يلتفت إلى ما خالفه ولا من خالفه، كائنًا من كان ولم يكن يقدم على الحديث الصحيح عملاً ولا رأيًا ولا قياسًا ولا قول صاحب ولا عدم علمه بالمخالف.

الأصل الثانى: ما أفتى به الصحابة فإنه إذا وجد لبعضهم فتوى، لا يُعْرَفُ له مخالف منهم فيها، لم يَعْدُها إلى غيرها ولم يقدم عليها عملاً ولا رأيًا ولا قياسًا.

الأصل الثالث: إذا اختلف الصحابة تخيَّر من أقوالهم ما كان أقربها إلى الكتاب والسنة، ولم يخرج عن أقوالهم، فإن لم يتبين له موافقة أحد الأقوال حكى الخلاف فيها، ولم يجزم بقول.

الأصل الرابع: الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف، إذا لم يكن فى الباب شىء يدفعه، وهو الذى رجحه – أى الحديث الضعيف – على القياس.

الأصل الخامس: القياس للضرورة، فإذا لم يكن عنده فى المسألة نص، ولا قول الصحابة، أو واحد منهم، ولا أثر مرسل أو ضعيف، عدل إلى القياس، فاستعمله للضرورة.

وعن المنهاج التجديدي لهذه السلفية العقلانية يعبر الإمام محمد عبده (١٢٦٥ – ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ – ١٩٠٥م) عندما قال: لقد ارتفع صوتى بالدعوة إلى تحرير العقل من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة، قبل ظهور الخلاف، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه، وتقل من خلطه وخبطه، لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الإنسانى، وأنه على هذا الوجه يعد صديقًا للعلم، باعثًا على البحث فى أسرار الكون، داعيًا إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالبًا بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل.

ففى منهاج هذه السلفية العقلانية تآخى النص والعقل، وتزامل العلم والدين، وتآزرت السلفية والتجديد.

أ.د/ محمد عمارة

السلفيون

لغة: هم الذين يحتذون حذو السلف، الذين سلفوا، أى: سبقوا ومضوا.

واصطلاحًا: يدخل فى إطار السلفيين أغلب تيارات الفكر ومذاهبه ومدارسه بدرجات متفاوتة ومعان متمايزة؛ لأن لها ماضيًا ومرجعية ونموذجًا ترجع إليه وتنتسب له وتحتذيه وتستصحب ثوابته ومناهجه، وذلك إذا استثنينا تيار الحداثة بالمعنى الغربى، والتى يقيم أصحابه قطيعة معرفية مع الموروث.

وإذا كان السلف هو الماضى فكلنا سلفيون.

لكنَّ السلفيين أنواع:

– فمن السلفيين من يقلد السلف، وهؤلاء هم أهل الجمود والتقليد.

– ومن السلفيين من يرجع إلى السلف، فيجتهد فى ميراثهم وتراثهم، مميزًا فيه الثوابت عن المتغيرات، والصالح للاستصحاب والاستلهام عن ما تجاوزته الوقائع المتغيرة، والعادات المتبدلة، والأعراف المختلفة، والمصالح المستجدة.

– ومن السلفيين من يستلهم من فقه السلف ما يتطلبه فقه الواقع الجديد.

– ومن السلفيين من يهاجر من واقعه المعيش إلى واقع السلف الذى تجاوزه الزمان، وإلى تجاربهم التى طوتها القرون.

– ومن السلفيين من سلفه عصر الازدهار والإبداع فى تاريخنا الحضارى.

– ومن السلفيين من سلفه عصر الركاكة والتراجع فى مسيرتنا الحضارية.

– ومن السلفيين من سلفه تراثنا وحضارتنا وثقافتنا الوطنية والقومية والإسلامية.

– ومن السلفيين من سلفه تراث الآخر الحضارى ومذاهبه وتياراته الفلسفية والاجتماعية، وبهذا المعنى يمكن إدخال الليبراليين الذين يحتذون حذو الليبرالية الغربية، والماركسيين اللذين يحتذون حذو الماركسية الغربية، وأمثالهم من المتغربين فى عداد السلفيين الذين أصبح الموروث والماضى الغربى سلفاً لهم يحتذونه أحياناً مع قدر من التحوير، وأحياناً بجمود وتقليد.

– ومن السلفيين من سلفه المذاهب والتيارات النصِّيَّة الحرفيَّة فى تراثنا.

– ومن السلفيين من سلفه تيارات العقلانية فى تراثنا، أو النزعات الصوفية فى موروثنا الحضارى.

– ومن السلفيين من سلفه مذهب تراثى بعينه يتعصب له ولا

يتعداه.

– ومن السلفيين من مرجعيته تراث الأمة، على اختلاف مذاهبها، يحتضنها جميعًا، ويعتز بها ، ويتخير منها.

ولكن مع صدق وصلاحية إدخال أغلب تيارات الفكر تحت مصطلح السلفيين، إلا أن هذا المصطلح قد ادعاه واشتهر به وكاد يحتكره أولئك الذين غلَّبوا النص، وفى أحيان كثيرة ظاهر النص على الرأى والقياس وغيرهما من سبل وآليات النظر العقلى، فوقفوا عند الرواية أكثر من وقوفهم عند الدراية، وحرَّموا الاشتغال بعلم الكلام فضلاً عن الفلسفات الوافدة على حضارة الإسلام، وهؤلاء هم الذين يطلق عليهم أحيانًا أهل الحديث، لاشتغالهم بصناعة المأثور وعلوم الرواية، ورفضهم علوم النظر العقلى.

وإمام هذه المدرسة هو أبو عبد الله أحمد بن حنبل (١٦٤ – ٢٤١هـ / ٧٨٠ – ٨٥٥ م) وفيها نجد أبرز الأئمة الذين اشتغلوا بصناعة الرواية وعلومها، من أمثال: ابن راهويه (٢٣٨هـ / ٨٥٢ م) وإمام علم الجرح والتعديل ، وأصحاب الصحاح والجوامع والمسانيد: البخارى (٢٥٦هـ / ٨٧٠ م) ، وأبو داود (٢٧٥هـ / ٨٨٨ م) ، والدارمى (٢٨٠هـ / ٨٩٣ م) ، والطبرانى (٣٦٠هـ / ٩٧١ م)، والبيهقى (٤٥٨هـ / ١٠٦٦ م) إلخ...

ولقد تطورت هذه المدرسة فى مرحلة ابن تيمية (٦٦١ – ٧٢٨هـ / ١٢٦٣ – ١٣٢٨ م) وابن قيم الجوزية (٦٩١ – ٧٥١هـ / ١٢٩٢ – ١٣٥٠ م) فضمَّت إلى المأثور بعضًا من أدوات النظر العقلى، وإن ظلت الغلبة والأولوية عندها للنصوص والمأثورات.

وعن هذا المنهاج يعبر ابن القيم، فيقول: (إن النصوص محيطة بأحكام الحوادث، ولم يُحِلْنا الله ولا رسوله على رأى ولا قياس، وإن الشريعة لم تحوجنا إلى قياس قطُّ، وإن فيها غنية عن كل رأى وقياس وسياسة واستحسان، ولكن ذلك مشروط بفهم يؤتيه الله عبده فيها).

فلقد ظل النص وحده هو المرجع عند هؤلاء السلفيين، لكن التطور قد أصاب هذا المنهاج النصى – فى مرحلة ابن تيمية وابن القيم – فحدث إعمال الفهم والعقل فى النصوص، دون الاكتفاء بالوقوف عند ظواهر هذه النصوص.

ولقد كان غلو هؤلاء السلفيين فى الانحياز إلى النص وحده، ثمرة لعوامل كثيرة، منها: مخافة غلو مضاد انحاز أهله – وهم فلاسفة العقلانية اليونانية من المشائيين – إلى عقلانية غير مضبوطة بالنص الدينى، وأيضًا النزعة الصوفية الباطنية الإشراقية، التى انحازت إلى الذوق والحدس ، دونما ضابط من

النص ولا من العقل.

ولأن هذه النزعات جميعها – النصية منها والعقلانية والباطنية – قد شابها قدر، كثير أو قليل، من الغلو، فلقد ظلت عاجزة عن استقطاب جمهور الأمة، وانحاز هذا الجمهور إلى النزعة الوسطية فى السلفية، تلك التى جمعت بين النقل والعقل ووازنت بينهما، وهى الأشعرية التى أسسها إمامها أبو الحسن الأشعرى: على بن إسماعيل (٢٦٠ – ٣٢٤هـ / ٨٧٤ – ٩٣٦م) ففى هذه المدرسة من مدارس السلفيين اجتمع النقل والمأثور مع النظر العقلى والاشتغال بعلم الكلام – الذى حرَّم السلفيون النصِّيُّون الاشتغال به – مع علم أصول الفقه، الذى يمثل فلسفة العقلانية الإسلامية فى التشريع.

ثم تطورت هذه المدرسة – بعد مرحلة التأسيس – على يد كوكبة من أئمتها، فى مقدمتهم الباقلانى: أبو بكر محمد بن أبى الطيب (٤٥٣هـ / ١٠١٣ م)، وإمام الحرمين الجوينى: أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله بن يوسف (٤١٩ – ٤٧٨هـ / ١٠٢٨ – ١٠٨٥ م)، وحجة الإسلام أبو حامد الغزالى (٤٥٠ – ٥٠٥هـ / ١٠٥٨ – ١١١١ م).

وعلى امتداد تاريخ الحضارة الإسلامية، ظلت هذه الصورة وهذه الموازنة ملحوظة فى مدارس ومذاهب السلفيين، فالنزعة

النصية تمثلها فى عصرنا الحديث وواقعنا المعاصر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ – ١٢٠٦هـ / ١٧٠٢ – ١٧٩٢م) المسماة بالوهابية، بينما لا تزال الأشعرية، الممثلـــة للعقلانيـــة، النصِّيَّة، تستقطب جمهور المسلمين.

أ.د/ محمد عمارة

الفصل الأول
حوار وملاحظات وتساؤلات

تطالعنا وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة كل يوم – فى تلك الأيام التى تمر بها مصر الآن – إما بحديث صحفى أو حوار تليفزيونى لقطب من أقطاب السلفية، حتى وصل الأمر بالقارئ أو المشاهد إلى حالة من اللبس أو عدم الفهم لهذا الفصيل من فصائل المجتمع الذى برز إلى السطح فى السنوات الأخيرة على الرغم من أنه لم يكن موجودًا من قبل، كما يرى ذلك كثيرون.

ولا شك أن القارئ أو المشاهد لا يملك نفسه من الإعجاب بفصاحة هذا الشيخ أو ذاك من شيوخ السلفية وهو يستشهد فى كل ثانية أو دقيقة بآيات القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية الشريفة بحيث يخيل لمن يستمع له أنه يتلو آيات من الذكر الحكيم وليس مجيبًا لسؤال، مما يذكرنا بقصة المتكلمة بالقرآن – والتى أوردها ابن حجة الحموى فى كتابه (ثمرات الأوراق) – وهى قصة امرأة بلغت من التقوى والورع إلى الحد الذى جعلها تتكلم بالقرآن مخافة أن تزل.

هذا هو التصور المبدئى الظاهر لكل من يقرأ أو يشاهد

أقطاب هذا الفصيل، وهو فصيل سوف يشعر القارئ أو المشاهد بأنه أمام فئة من البشر لا ينطقون عن الهوى بل إن جلّ كلامهم من آيات الذكر الحكيم وأحاديث سيد المرسلين فنعم الحديث ونعم المتحدث، وهم من ناحية أخرى فئة من البشر اشتروا دينهم وعزفوا – حبًّا وكرامة – عن زخرف الدنيا فنعم ما ابتاعوا ونعم الشارى.

غير أننا سوف نتوقف قليلاً لنطرح بعض الملاحظات – وإن شئنا الدقة هى علامات استفهام – حول تلك الفئة التى أخلصت النية والعزم لوجه الله الكريم:

أولاً: إن التشبه بالسلف الصالح أمر محمود للغاية ولكن السؤال الذى يطرح نفسه تلقائيًّا، هل هذا التشبه والاقتداء بالسلف الصالح ينصب على المعنويات أم المحسوسات.

ونعنى بالمعنويات هنا فضائل الأخلاق كالأمانة والشجاعة والشرف والعفة ومد يد العون لكل ذى حاجة، وقول الحق والعمل بأوامر الكتاب والسنة وتجنب النواهى والمعاصى... إلخ.

وهى أخلاق تجعل لصاحبها المكانة العليا فى الدنيا والفردوس الأعلى فى الجنة.

غير أن تلك المعنويات هى حكر على صاحبها وحده سواء

أكان عن علاقته بربه أو علاقته بأفراد عشيرته الأقربين. ولأن الإنسان لا يحيا منعزلاً عن بقية بنى البشر فهو لا ينفصل عن عائلته الصغيرة أو عائلته الكبيرة كالقبيلة أو جيرانه أو فى المجتمع الكبير، أى: وطنه، الذى يتنسم هواءه ويشرب من مائه، ويتكفل أو يساهم فى تنشئته وتعليمه، ويعمل على حمايته وأمنه... إلخ.

وإذا كنا نستطيع أن نستشف علاقته بعائلته الصغيرة أو الكبيرة فإن علاقته بوطنه من الأمور الملتبسة أو التى يكتنفها الغموض فقد غابت أو على الأقل لم تتضح معالمها فى أدبيات الخطاب الإعلامى لهذا الفريق.

ولأن السلفيين قد توجهوا بفكرهم إلى الدولة الإسلامية فى بداياتها وخاصة إبَّان عهد الخلفاء الراشدين حيث كان المفهوم الدينى حاضرًا بقوة، بينما كان المفهوم الوطنى غائبًا وبقوة أيضًا، ذلك لأسباب شتى ومنطقية فى ذات الوقت إذ إن الخلفاء الراشدين كان همُّهم الأكبر رفع راية الإسلام من جهة وحماية الدولة الوليدة من خطر الروم والفرس من جهة أخرى.

وحتى بعد قيام الدولتين الأموية والعباسية فقد نعمت هاتان الدولتان بالرخاء والثراء من خراج الأمصار التى فتحها الإسلام، مع اعتبار أن هناك فئة من الجند المرابطين على

الثغور يحمون حدود الخلافة.

أما الآن وبعد أربعة عشر قرناً من الزمان تغيرت أمور الدنيا بما فيها البلاد والعباد، وأصبح الوطن فى حاجة إلى الرعاية والاهتمام، فقد أصبح الإسلام كعقيدة مستقرة فى النفوس والقلوب ويدين به أكثر من مليار من البشر موزعين فى أرجاء قارات العالم ولا سبيل إلى زعزعته أو الانتقاص من قدره كعقيدة.

لذا فإن السلفيين مطالبون بإيضاح مفهوم الوطن، ولاسيما إذا كان هذا الوطن مثقل بالديون والمشكلات وتحوطه الأعداء الطامعين فيه. وما أكثر ما تعانى مصر من مشكلات.

هذا من أمر المعنويات، أما المحسوسات والتى نعنى بها الأشياء المادية الملموسة من مأكل ومشرب وملبس وأمور حياتية وغيرها مما يلمسه المرء فى كل ساعة وكل يوم.

فقد كان النبى ﷺ والصحابة والتابعون من أزهد خلق الله وأقربهم إلى خالص الدين وأبعدهم عن زخرف الدنيا، ولا حاجة بنا أن نذكر القارئ بأن النبى ﷺ كان يرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويفطر على التمر، وكان يحارب المشركين شأنه فى ذلك شأن أصحابه وكأنه واحد منهم وليس بقائدهم، وغير ذلك من الصفات الحميدة والمحمودة التى تزخر بها كتب السيرة والتى لا

حاجة بنا لذكرها لأنها أشهر من أن تذكر.

أى إن النبى ﷺ كان يحيا بين قومه وعشيرته حياة عادية للغاية ليس فيها من ترف العيش أو رغد الحياة، على العكس تمامًا مما نراه، ونسمعه عن شيوخ السلفيين الآن الذين يذكروننا بنعيم الجنة إن أحسنَّا عملاً، وسوء العاقبة فى النار إن أسأنا ولم نتبع ما أمرنا به الله ﷻ ورسوله الكريم، والذين ما انفكوا فى حديث دائم عن فضيلة الزهد فى الدنيا، مرددين بعضًا من أقوال السلف الصالح عن الزهد والقناعة والرضا بما قسم الله له، ذاكرين فى الوقت نفسه أمثلة من زهد السلف الصالح وربما استشهدوا بعمر بن الخطاب ﷺ فيقولون: كان ﷺ خشن العيش، خشن المطعم، يرقع الثوب بالأدم – الجلد – ويحمل القربة على كتفيه، مع عظيم هيبته، ويركب حمارًا عريًا[1].

أحاديث لا تنتهى عن الزهد والتواضع والعزوف عن المنهج، وكأن الزهد الركن السادس من أركان الإسلام.

ولعل جمهرة كبيرة من الناس – ولهم الحق فى ذلك – ألاَّ تصدق كل ما يقال عن هؤلاء السلفيين إذ يراهم الناس من كبار الأثرياء، ويسمعون عنهم – صوابًا كان أم خطأ – أحاديث

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير ٥/٢١٤.

وكأنهم من رجال الأعمال، مما لا يتفق مع ما يقولون عن الزهد فى الدنيا، ليس هذا فحسب بل ربما نعذر من يظن أنه أمام حالة من ازدواج الشخصية، وهو – كما هو معروف – من الأمراض النفسية الشائعة. فكيف لقائل أن يحدثنا ليل نهار عن الزهد والعزوف عن مباهج الحياة وترف العيش، وتفيض عيناه بالدمع إذا ذكر واحدًا من السلف الصالح ومبلغ زهده وتعففه وإيثار الآخرين بما حباه الله من جزيل نعمه، أن نصدقه وهو غارق فى نعيم الحياة وترفها ورغدها.

بعد أن فرغنا من صلاة الجمعة أنا وصاحبى، وقد أفاض الخطيب فى فوائد النظافة وفضل الوضوء فى هذا الشأن، ووجوب الصلاة فى أنظف الثياب اللائقة بأطهر مكان وهو بيت الله، كما أفاض أيضًا فى شرح أن النظافة من الإيمان، كما لم ينس أيضًا أن يذكرنا بإماطة الأذى عن الطريق كما ورد فى الحديث الشريف.

والحقيقة أن الخطيب كان صاحب بلاغة وبيان وهو يسوق إلينا العبرة تلو الأخرى مستشهدًا بأقوال وأفعال السلف الصالح.

وقد لفت نظر صاحبى أن جمعًا من المصلين – يبدو عليهم من السلفيين – يتناولون يد الخطيب يوسعونه تقبيلاً ولثمًا وثناءً على ما جاء فى الخطبة مما يقطع بأنه كبيرهم.

فقلت له: رحم الله زمانًا كان المعلم فيه ينال من التقدير ما يناله هذا الخطيب من مريديه. وهذا الاحترام وهذا التقدير وإن كان يبدو لأول وهلة مبالغًا فيه، قليل بالقياس إلى ما نبهنا إليه الخطيب من وجوب النظافة فى كل أمر من أمور حياتنا بداية من نظافة القلب ونظافة الثوب ونظافة المكان من حولنا وغير ذلك من أمور تستدعى وجوب النظافة والتى هى فى أحيان كثيرة عنوانًا للطهارة، وما أدراك ما الطهارة فى الإسلام؟.

وبعد أن فرغنا جميعًا من الصلاة وبدأنا فى السير كلٌّ يمضى إلى غايته، ولم نكد نسير سوى دقيقة أو دقيقتين حتى فاجأتنا تلال وأكداس مكدسة من القمامة تزكم رائحتها الأنوف فضلاً عن مظهرها الكريه والبشع الذى يؤذى العين.

وللأسف الشديد أن مثل هذا المنظر أصبح من المناظر المألوفة فى حياتنا المعاصرة التى نمر عليها صباح مساء ولا نعيرها التفاتًا، وكأن الأمر لا يعنينا من قريب أو بعيد، رغم أنها هى المسبب الأساس لكثير من الأمراض والأوبئة التى نعانى منها ونتكلف ما لا نطيق من الأموال فى علاجها، إن كانت قابلة للعلاج، أما إذا كانت غير قابلة للعلاج فالموت المحتم هو نتيجة لسبب اسمه وباء القمامة. ومر الجمع غير مبالين بالأمر وقد سد من كان يصلى معنا من السلفيين أنوفهم وهم يتمتمون

بكلام ربما كانوا يتلون بعضًا من آيات الذكر الحكيم، وربما كانوا يلعنون فى سرهم تلك الحكومة الظالمة والعاجزة التى لا تقدر على جمع هذه الأكداس من القمامة.

غير أن صاحبى صاح فى أسى شديد: عجبًا لهؤلاء الناس أما كان يجدر بهم أن يميطوا الأذى عن الطريق كما أمرنا به رسولنا الكريم والذى ما انفك الخطيب يذكرنا به فى خطبته غير مرة بصيغ شتى. أما كان منهم رجل رشيد يصدق القول مع الفعل ويبدأ بنفسه ليتبعه الجمع بعد ذلك ويراهم أهل الحى فيبادرون بمثل فعلهم؟!!.

وأمَّنت على كلام صاحبى وبادلته الأسى فقلت له: يبدو أن القول سهل والفعل صعب، فقال صاحبى: فى هذه الحالة – وحسب منطق الأشياء – فإن هؤلاء الناس غير صادقين فى أقوالهم ما لم يقرنوا تلك الأقوال بالأفعال، فبدلاً من صب اللعنات على الحكومة والمسئولين كان عليهم أن يكونوا قدوة للآخرين فى إماطة الأذى عن الطريق حتى يكونوا ركنًا فاعلاً من أركان المجتمع لا أن يكونوا ركنًا خاملاً لا يجيدون سوى الكلام.

وأضاف صاحبى: أخشى أن يكون هؤلاء الناس قد فقدوا الإحساس بزمانهم فأقوالهم لا تتجاوز ما فى الكتاب والسنة وما

ورد على لسان السلف الصالح وهو أمر محمود فى حد ذاتــه؛ لأن تلك الأقوال هى من السمو والرفعة فى المكانة الأعلى، فهل يجادل أحد فيما جاء به القرآن الكريم وهو وحى رب العالمين؟، وهل يجادل أحد فيما ورد على لسان رسول الله ﷺ وصحابته الأجلاء والتابعين؟.

هذا من أمر الأقوال، أما عن مظهرهم فيكاد يدل عليهم مــن الجلباب الأبيض والعمامة البيضاء واللحية البيضاء أو الــسوداء حسب المرحلة العمرية، وربما اســتعجل الــشباب ذوو اللحيــة السوداء فجللها بالخضاب اقتداء بسنة رســول الله ﷺ فــضلاً عن المسبحة والسواك أحياناً.

فقلت له: على الرغم من صحة ما تقول فإن هؤلاء النــاس غير منفصلين عن حياتهم وإنما هم يمارسون نوعًا من الانتقــاء فى حياتهم، فنرى كبيرهم – وهو يمثل القدوة لهــم – يركــب السيارة الفارهة، ويتصل بين الحين والحين من هاتفه المحمــول الذى يبدو عليه من أحدث ما توصلت إليه شــركات الهواتــف المحمولة، وعندما يستضيفه التليفزيون فى حوار نجد أنه يجلس أمام المذيعة التى لا ترى حرجًا فى وضع الساق علــى الــساق أمامه وهو بدوره يجيب أحياناً وينصت أحيانــا أخــرى، غيــر مدرك أن فى أدبيات الإسلام أن النظرة الأولى له والثانية عليه،

فما بالك بالساعة أو تزيد أمام تلك المذيعة، وفى شهر رمــضان المبارك نجد على المائدة جميع أنواع الياميش التـــى لــم يكــن للعرب القدماء فى عصر النبوة علم بها، رغم علمه الأكيد بمـــا كان النبى ﷺ يفطر عليه. ومن العجيب أن لهذا الشيخ الجليل حجتان:

أولاها: تلك القاعدة الفقهية المعروفة بـ (القياس) فجميع أنواع الياميش جائزة شرعًا قياسًا على التمر والزبيب.

وثانيتها: قول الله ﷻ: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَـــاتِ مَـــا رَزَقْنَـــاكُمْ﴾ (البقرة: ٥٧).

فقال صاحبى: رحم الله عمر بن الخطاب ﷺ، فعن جابر بن عبد الله قال: رأى عمر بن الخطاب ﷺ فى يدى لحمًا معلقًـــا. فقال: ما هذا يا جابر؟ فقلت: اشتهيت لحمًا فاشتريته. فقال عمر: كلما اشتهيت لحمًا اشتريته!! أما تخاف هــذه الآيـــة: ﴿أَذْهَبْــتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ (الأحقاف: ٢٠)[(١)].

فقلت: يخيل إلىَّ أننا بحاجة إلى علم النفس، وربمـــا احتجنـــا إلى طبيب نفسى ليفسر لنا الكثير مما نراه ولا نفهمه من سلوك هؤلاء الناس. فهل نحن أمـــام حالـــة مـــن ازدواج الشخـــصية

(1) أصحاب الرسول، محمود المصرى ص١٣٠.

فكلامهم فى الفضائيات فى واد وواقع حياتهم المعيشية فـــى واد آخر؟!!

إنهم يقولون ما لا يفعلون ويفعلـــون مـــا لا يقولـــون، ومـــا مرورهم بأكداس القمامة دون أن يفعلوا شيئًا لهذا الأذى المحيط بالطريق وبالبشر أيضًا، إلا دلالة يسيرة على هذا الازدواج فـــى الشخصية، فغالبًا ما تدل الحوادث التافهة عـــن أمـــور كبيـــرة وخطيرة.

قال صاحبى: دعنا من هذا الحديث فقد قرأت مؤخرًا كتابًـــا طريفًا من كتب التراث الحاوية على طرائف ولطائف من نوادر الأدب العربى وهو كتاب (المستطرف فى كل فن مـــستظرف) للأبشيهى، وقد أعجبتنى أبيات أشبه بالأمثـــال الـــسائرة، وهـــذه الأبيات هى:

يـــا أيهـــا الرجـــل المعلِّـــم غيـــره هـــلاَّ لنفـــسك كـــان ذا التعلـــيم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنا كيمـــا يـــصح بـــه وأنـــت ســـقيم
وتـــراك تـــصلح بالرشـــاد عقولنـــا أبـــدًا وأنـــت مـــن الرشـــاد عـــديم
فابـــدأ بنفـــسك فانههـــا عـــن غيهـــا فـــإذا انتهـــت عنـــه فأنـــت حكـــيم
فهنـــاك يُقبـــل مـــا تقـــول ويهتـــدى بـــالقول منـــك وينفـــع التعلـــيم
لا تنـــه عـــن خلـــق وتـــأتى مثلـــه عـــار عليـــك إذا فعلـــت عظـــيم

وهذا قريب من قول أبى العلاء:

يحـــرم فـــيكم الـــصهباء صـــبحًا ويـــشربها علـــى عمـــد مـــساء

فقلت لصاحبى: إذا كان الشىء بالشىء يذكر؛ فإن هناك بيتًا مشهورًا يحضرنى الآن وهو:

يعطيك من طــرف اللــسان حــلاوة ويروغ منــك كمــا يــروغ الثعلــب

الفصل الثانى

السلف لصالح.. ما لهم وما عليهم

عندما نطالع التاريخ الإسلامى من بدايات عصر النبوة ثم الخلفاء الراشدين، ثم العصرين الأموى والعباسى فإننا نحس بنوع من الإعجاب والفخر لهذه الأمة التى وصفها الله ﷻ بأنها ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وما ظنك برجال هذه الأمة إبان عصر النبوة يقتدون برسولها الكريم الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه. فهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

ولأن هؤلاء الصحابة الأجلاء رضوان الله عليهم ليسوا سوى بشر فى النهاية ولأن البشر – كما خلقهم الله تعالى – متفاوتون فى الطبائع والأهواء، ولأن الصحابة – كبشر – لهم ما للبشر من نوازع وعواطف فيصيبون أحيانًا ويخطئون فى أحيان أخرى، ويحبون ويكرهون ويتعففون فى موقف ربما تأتى فيه فائدة لهم أو نعمة تحل عليهم، ويرغبون فى النعمة أو الفائدة إذا أتيح لهم نفس الموقف.

وخلاصة القول: أن الصحابة ومن هم فى تلك المكانة الأسمى فى التاريخ الإسلامى ليسوا على حدٍّ سواء – باعتبارهم بشرًا – والدليل على ذلك أنه ليس مجال للمساواة بين

المهاجرين الأوائل الذين عذبوا وأوذوا فى أموالهم وحياتهم وهاجروا بدينهم وبين الطلقاء الذين أسلموا يوم فتح مكة؛ لأن أصحابنا من السلفيين الذين يطالعوننا صباح مساء على شاشات الفضائيات – التى يبدو لنا أن كثرتها التى تصل إلى ما يزيد على المائة قناة على مدار ساعات اليوم أمر يدعو إلى الشك والريبة، فالدعوة إلى الإسلام أو التعريف بأركانه لا تحتاج إلى هذا العدد الكبير من قنوات الفضائيات – لم يقدموا لنا اسمًا واحدًا من السلف الصالح يمكن لهم أن يجعلوا منه المثل الأعلى والقدوة المثلى التى يتمثلون بها فى أحاديثهم، وكيف لهم ذلك ورسول الله ﷺ هو المثل الأعلى للجميع؛ لأنه كما قال فيه رب العالمين: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤).

ولأن الصحابة كما سبق أن قلنا ليسوا على حد سواء؛ فإنا سوف نسوق مثلين لصحابيين هما: عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد اللذين أسلما معًا فى عام واحد.

إسلام الصحابيين:

ولنتعرف أولاً على كيفية إسلام الرجلين فى العام الثامن للهجرة كما ورد على لسان عمرو بن العاص نفسه وهى القصة التى أوردها الطبرى فى تاريخه فى الجزء الثالث ص٣٠ – ٣١.. قال عمرو بن العاص: لما انصرفنا مع الأحزاب عن

الخندق، جمعتُ رجالاً من قريش كانوا يرون رأيى، ويسمعون منى، فقلت لهم: تعلمون والله أنى لأرى أمر محمد يعلو الأمور علوًّا منكرًا، وإنى قد رأيت رأيًا فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قلت: رأيت أن نلحق بالنجاشى، فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشى، فلأن نكون تحت يديه أحبُّ إلينا من أن نكون تحت يدى محمد؛ وإن يظهر قومنا فنحن من قد عرفوا؛ فلا يأتينا منهم إلا خير. فقالوا: إن هذا لرأى. قلت: فاجمعوا له ما نهدى إليه – وكان أحبَّ ما يُهدى إليه من أرضنا الأدم – فجمعنا له أدمًا كثيرًا، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه، فو الله إنا لعنده، إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري – وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه – قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده.

قال: فقلت لأصحابى: هذا عمرو بن أمية الضمري، لو قد دخلت على النجاشي وسألته إياه؛ فأعطانيه فضربت عنقه! فإذا فعلت ذلك رأت قريش أنى قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد.

فدخلت عليه، فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحبًا بصديقى! أهديت لى شيئًا من بلادك؟ قلت: نعم، أيها الملك، قد أهديت لك أدمًا كثيرًا، ثم قربته إليه، فأعجبه واشتهاه، ثم قلت

له: أيها الملك، إنى قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا. قال: فغضب، ثم مد يده فضرب بها أنفى ضربة ظننت أنه قد كسره – يعني النجاشي – فلو انشقت الأرض لى لدخلت فيها فَرَقًا منه. ثم قلت: والله أيها الملك لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه، قال: أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، لتقتله! فقلت: أيها الملك، أكذاك هو؟ قال: ويحك يا عمرو! أطعنى واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده. قال: قلت: فتبايعنى له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده، فبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابى، وقد حال رأيى عما كان عليه، وكتمت أصحابى إسلامى، ثم خرجت عامدًا لرسول الله لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد – وذلك قبل الفتح – وهو مقبل من مكة، فقلت: إلى أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المنسم، وإن الرجل لنبى، أذهب والله أسلم؛ فحتى متى! فقلت: والله ما جئت إلا لأسلم، فقدمنا على رسول الله ﷺ، فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت: يا رسول الله، إني أبايعك على أن تغفر لى ما تقدم من ذنبى، ولا أذكر ما تأخر! فقال رسول الله ﷺ: يا عمرو، بايع فإن الإسلام يَجُبُّ

ما قبله، وإن الهجرة تَجُبُّ ما قبلها. فبايعته ثم انصرفت.

هذا من أمر إسلام الرجلين غير (أن الرواية لم تتم فصولاً) على حد قول شوقى فى بيته المشهور، إذ إن هاك موقفين لكلا الرجلين كل منهما يعبر أصدق التعبير عن تفاوت الصحابة فيما بينهم وأنهم ليسوا على حد سواء باعتبارهم بشرًا.

موقف عمرو بن العاص:

ولنبدأ بعمرو بن العاص إبان حوادث ما عُرف فى أدبيات التاريخ الإسلامى بـ (الفتنة الكبرى) التى – لولا لطف الله بعباده – لانهارت الدولة الإسلامية الوليدة فى سنيها الأولى.

وقد أورد موقف عمرو بن العاص ابن حنيفة الدينورى فى كتابه الأخبار الطوال حيث قال:

وإن عليًّا أرسل جرير بن عبد الله إلى معاوية يدعوه إلى الدخول فى طاعته، والبيعة له، أو الإيذان بالحرب. فسار جرير إلى معاوية بكتاب عليٍّ، فقدم على معاوية، فألفاه وعنده وجوه أهل الشام، فناوله كتاب عليٍّ، وقال: (هذا كتاب عليٍّ إليك، وإلى أهل الشام يدعوكم إلى الدخول في طاعته، فقد اجتمع له الحرمان، والمصران، والحجازان، واليمن، والبحران، وعمان، واليمامة، ومصر، وفارس، والجبل، وخراسان، ولم يبق إلا بلادكم هذه، وإن سالَ عليها وادٍ من أوديته غرقها).

وفتح معاوية الكتاب فقرأه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله علىٍّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان، أما بعد فقد لزمك ومن قِبَلَكَ من المسلمين بيعتي، وأنا بالمدينة، وأنتم بالشام؛ لأنه بايعنى الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ﷺ، فليس للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، وإنما الأمر في ذلك للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجل مسلم، فسموه إمامًا، كان ذلك لله رضى، فإن خرج من أمرهم أحد بطعن فيه أو رغبة عنه رد إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولَّى، ويصله جهنم وساءت مصيرًا، فادخل فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار، فإن أحب الأمور فيك وفيمن قبلك العافية، فإن قبلتها وإلا فائذن بحرب، وقد أكثرت فى قتلة عثمان، فادخل فيما دخل فيه الناس، ثم حاكم القوم إلىَّ، أحملك وإياهم على ما فى كتاب الله وسنة نبيه، فأما تلك التى تريدها، فإنما هي خدعة الصبي عن الرضاع).

فجمع معاوية إليه أشراف أهل بيته، فاستشارهم في أمره، فقال أخوه عتبة بن أبى سفيان: استعن على أمرك بعمرو بن العاص، وكان مقيمًا في ضيعة له من حيز فلسطين، قد اعتزل الفتنة. فكتب إليه معاوية: (أنه قد كان من أمر علىٍّ فى طلحة

والزبير وعائشة أم المؤمنين ما بلغك، وقد قدم علينا جرير بن عبد الله في أخذنا ببيعة عليٍّ، فحبست نفسي عليك، فأقبل، أناظرك في ذلك، والسلام).

فسار ومعه ابناه عبد الله ومحمد حتى قدم على معاوية، وقد عرف حاجة معاوية إليه، فقال له معاوية: أبا عبد الله، طرقتنا في هذه الأيام ثلاثة أمور، ليس فيها ورد ولا صدر، قال: وما هن؟ قال: أما أولهن، فإن محمد بن أبى حذيفة كسر السجن وهرب نحو مصر فيمن كان معه من أصحابه، وهو من أعدى الناس لنا، وأما الثانية فإن قيصر الروم قد جمع الجنود ليخرج إلينا فيحاربنا على الشام، وأما الثالثة فإن جريرًا قدم رسولاً لعلى بن أبى طالب يدعونا إلى البيعة له أو إيذان بحرب.

قال عمرو: أما ابن أبي حذيفة فما يغمُّك من خروجه من سجنه في أصحابه، فأرسل في طلبه الخيل، فإن قدرت عليه قدرت، وإن لم تقدر عليه لم يضرك، وأما قيصر، فاكتب إليه تعلمه، أنك ترد عليه جميع من فى يديك من أسارى الروم، وتسأله الموادعة والمصالحة تجده سريعًا إلى ذلك، راضيًا بالعفو منك، وأما علىٌّ بن أبى طالب فإن المسلمين لا يساوون بينك وبينه.

قال معاوية: إنه مالأ على قتل عثمان، وأظهر الفتنة، وفرَّق

الجماعة.

قال عمرو: إنه وإن كان كذلك، فليست لك مثل سابقته وقرابته، ولكن ما لى إن شايعتُك على أمرك حتى تنال ما تريد؟.

قال: حكمك.

قال عمرو: اجعل لي مصر طعمة ما دامت لك ولاية.

فتلكأ معاوية، وقال: يا عبد الله، لو شئت أن أخدعك خدعتك.

قال عمرو: ما مثلي يُخدع.

قال له معاوية: ادن مني أسارّك.

فدنا عمرو منه، فقال: هذه خدعة، هل ترى فى البيت غيرى وغيرك، ثم قال: يا عبد الله، أما تعلم أن مصر مثل العراق؟.

قال عمرو: غير أنها إنما تكون لى إذا كانت لك الدنيا، وإنما تكون لك إذا غلبتَ عليًّا.

فتلكأ عليه، وانصرف عمرو إلى رحله، فقال عتبة لمعاوية: أما ترضى أن تشتري عمرًا بمصر إن صفت لك قَلِيَّتُكَ[1] لا تغلب على الشام.

فلما أصبح بعث إلى عمرو، فأعطاه ما سأل، وكتبا بينهما

---

(1) القلية: مرقة تتخذ من لحوم الجذور وأكبادها.

في ذلك كتابًا، ثم إن معاوية استشار عمرًا فى أمره، وقال ما ترى؟.

قال عمرو: إنه قد أتاك فى هذه البيعة خبر أهل العراق من عند خير الناس، ولست أرى لك أن تدعو أهل الشام إلى الخلافة، فإن ذلك خطر عظيم حتى تتقدم قبل ذلك بالتوطين للأشراف منهم، وإشراب قلوبهم اليقين بأن عليًّا مالأ على قتل عثمان، واعلم أن رأس أهل الشام شُرَحْبِيل بن السِّمْط الكِنْدى، فأرسل إليه ليأتيك، ثم وطِّنْ له الرجال على طريقه كله، يخبرونه بأن عليًّا قتل عثمان، وليكونوا من أهل الرضا عنده، فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام، وإن تعلق هذه الكلمة بقلبه لم يخرجها شيء أبدًا.

فدعا يزيد بن أسد، وبُسْر بن أبى أرطأة، وسفيان بن عمرو، ومخارق بن الحارث، وحمزة بن مالك، وحابس بن سعد، وغير هؤلاء من أهل الرضا عند شرحبيل بن السمط، فوطنهم له على طريقه، ثم كتب إليه يأمره بالقدوم عليه، فكان يلقى الرجل بعد الرجل من هؤلاء فى طريقه، فيخبرونه أن عليًّا مالأ على قتل عثمان، ثم أشربوا قلبه ذلك.

فلما دنا من دمشق أمر معاوية أشراف الشام باستقباله، فاستقبلوه، وأظهروا تعظيمه، فكان كلما خلا برجل منهم ألقى

إليه هذه الكلمة، فأقبل حتى دخل على معاوية مغضبًا، فقال: أبى الناس إلا أن ابن أبى طالب قتل عثمان، والله لئن بايعته لنخرجنك من الشام، فقال معاوية: ما كنت لأخالف أمركم، وإنما أنا واحد منكم. قال: فاردد هذا الرجل إلى صاحبه – يعنى جريرًا – فعلم عند ذلك معاوية أن أهل الشام مع شرحبيل، فقال لشرحبيل: إن هذا الذى تهم به لا يصلح ألا برضا العامة، فسر في مدائن الشام، فأعلمهم ما نحن عليه من الطلب بثأر خليفتنا وبايعهم على النصرة والمعونة.

فسار شرحبيل يستقرى مدن الشام، مدينة بعد مدينة، ويقول: أيها الناس، إن عليًّا قتل عثمان، وإنه غضب له قوم فلقيهم، فقتلهم، وغلب على أرضهم، ولم يبق إلا هذه البلاد، وهو واضع سيفه على عاتقه، وخائض به غمرات الموت حتى يأتيكم، ولا يجد أحدًا أقوى على قتله من معاوية، فانهضوا أيها الناس بثأر خليفتكم المظلوم. فأجابه الناس كلهم إلا نفرًا من أهل حمص نساكًا، فإنهم قالوا: نلزم بيوتنا ومساجدنا، وأنتم أعلم.

فلما ذاق معاوية أهل الشام، وعرف مبايعتهم له قال لجرير: الحق بصاحبك، وأعلمه أنى وأهل الشام لا نجيبه إلى البيعة[1].

---

(1) الأخبار الطوال للدينورى ص١٥٦ – ١٦٠، بتصرف.

موقف خالد بن الوليد:

هذا ما كان من أمر عمرو بن العاص، أما عن خالد بن الوليد فيحدثنا عنه الطبرى فى تاريخه (٦٧/٤ وما بعدها)[١] عندما عزله عمر بن الخطاب عن قيادة جيوش المسلمين وهو القائد المنتصر فى معارك العرب والفرس، ويقود جيوش المسلمين من انتصار إلى آخر حتى استنجد به أبو بكر الصديق قبل وفاته وأرسله لمعاونة جيوش المسلمين فى الشام التى كانت تحت قيادة أبى عبيدة بن الجراح؛ لأنها كانت فى موقف صعب، فأسرع خالد وذهب مسرعًا فى طريق غير مأمون من العواقب من العراق إلى الشام عبر بادية مهلكة.

وكعادة خالد خرج من انتصار إلى آخر على جيوش الروم، وحدث أن أجاز خالد الأشعث بن قيس بجائزة عشرة آلاف درهم، يقول الطبرى:

فدعا عمر بن الخطاب البريد، وكتب معه إلى أبى عبيدة أن يقيم خالدًا ويعقله بعمامته، وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين إجازة الأشعث، أمن ماله أم من إصابة أصابها؟ فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر بخيانة، وإن زعم أنها من ماله

---

(1) بتصرف يسير.

فقد أسرف. واعزله على كل حال، واضمم إليك عمله.

فكتب أبو عبيدة إلى خالد، فقدم عليه، ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر، فقام البريد فقال: يا خالد، أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة؟ فلم يجبه حتى أكثر عليه، وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئًا، فقام بلال بن رباح إليه، فقال: إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا، ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته وقال: ما تقول! أمن مالك أم من إصابة؟ قال: لا بل من مالى، فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده، ثم قال: نسمع ونطيع لولاتنا، ونفخِّم ونخدم موالينا. قالوا: وأقام خالد متحيرًا لا يدرى أمعزول أم غير معزول؟.

وجعل أبو عبيدة لا يخبره حتى إذا طال على عمر أن يقدم ظن الذى قد كان. فكتب إليه بالإقبال، فأتى خالد أبا عبيدة، فقال: رحمك الله، ما أردت إلى ما صنعت! كتمتني أمرًا كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم! فقال أبو عبيدة: إنى والله ما كنت لأروعك ما وجدت لذلك بدًّا، وقد علمت أن ذلك يروعك. قال: فرجع خالد إلى قنَّسرين، فخطب أهل علمه وودَّعهم وتحمَّل، ثم أقبل إلى حمص فخطبهم وودعهم، ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر، فشكاه وقال: لقد شكوتك إلى المسلمين؛ وبالله إنك فى أمرى غير مجمل يا عمر، فقال عمر: من أين هذا الثراء؟ قال:

من الأنفال والسُّهمان، ما زاد عن الستين ألفًا فلك. فقوَّم عمر عُروضه فخرجت إليه عشرون ألفًا، فأدخلها بيت المال. ثم قال: يا خالد، والله إنك علىَّ لكريم، وإنك إلىَّ لحبيب، ولن تعاتبنى بعد اليوم على شىء.

وكتب عمر إلى الأمصار: إنى لم أعزل خالدًا عن سخطة ولا خيانة، ولكن الناس فتنوا به، فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وألا يكونوا بعرض فتنة.

تحليل موقف الرجلين:

ويحق لنا أن نحلل موقف الرجلين وهما من الصحابة المشهورين الذين لهم ذكر مشهود فى كتب التاريخ الإسلامى.

ولأن الصحابة بشر وليسوا من الملائكة فهم ليسوا بمعصومين من الخطأ، ولأنهم بشر فسوف نوضح موقف الرجلين باعتبارهم بشر.

فعمرو بن العاص كان موقفه واضحًا من العداء الشديد الذى لم يخفيه عمن حوله والدليل على ذلك ما حدث عند النجاشى.

وأن عمرو بن العاص ظل حتى اللحظة الأخيرة وهو يترقب إلى أى اتجاه تميل الكفة، فهو مع المشركين إن مالت كفتهم على سيدنا محمد وأصحابه، وهو مع سيدنا محمد وأصحابه – بالطبع

هو مضطر إلى ذلك – إن مالت الكفة باتجاههم وظهروا على قريش.

بينما أسلم خالد بن الوليد طائعًا مختارًا بدليل قوله: والله إن الرجل لنبى حقًّا... إلخ.

إن ما أورده الدينورى فى كتابه (الأخبار الطوال) عما دار بين عمرو ومعاوية لهو أمر خطير للغاية، وأغلب الظن أن ما دار بينهما هو الذى أدى إلى الفتنة الكبرى وشق صف المسلمين.. ولا شك أن اقتراح عمرو لمعاوية بمهادنة قيصر الروم حتى يتفرغ لقتال علىّ لهو سابقة فى التاريخ الإسلامى، فكيف يجوز لمسلم كائنًا من كان أن يهادن عدو المسلمين حتى يكون بمأمن فى قتال المسلمين، وكل هذا فى نظير أن يتملك مصر منفردًا.

أى إن عمرًا قد نظر إلى شىء واحد وهو شخص عمر بن العاص، وإلى أى اتجاه تميل الكفة، وقد كان فى عزلة حتى استدعاه معاوية.

بينما كان خالد بن الوليد وهو القائد المنتصر فى حروب أعداء المسلمين قد امتثل تمامًا لأمر الخليفة عمر بن الخطاب، بل ورضى أن يعقله بلال بن رباح بعمامته أمام جمع المسلمين، ولو كانت فى خالد بقية من جاهلية لأبى أن يعقله بلال وهو

الذى كان عبدًا حبشيًّا فى الوقت الذى كان فيه خالد من سادات وأشراف قريش. ولكن خالدًا قد تخلق بأخلاق الإسلام وامتثل لأمر خليفة المسلمين ونصب عينيه عدم شق صف المسلمين فى سبيل بناء الدولة الإسلامية. أى إننا أمام رجل تسامى عن كبريائه العسكرى فى سبيل الوطن والدين معًا.

إننا أمام نمطين من أنماط صحابة رسول الله ﷺ، فالأول قد آثر نفسه بميزات ومنافع فى سبيل نصرة معاوية ضد علىٍّ. أما الثانى فقد آثر دينه ووطنه، وجموع المسلمين وتنازل طائعًا عن أمجاده العسكرية فى سبيل دينه ووطنه، وقد كان بوسعه أن يثير الفتن وهو يودع جنوده الذين قادهم من نصر إلى نصر، أو يعلن العصيان، وسوف يجد من يتبعونه من الجند، وهنا قد تفشل ريح الإسلام، ولكن الله أبى إلا تنزل رحمته بالإسلام فى شخص خالد بن الوليد.

نخلص من هذا لنقول: إن من تطالعنا وجوههم ليل نهار فى الفضائيات من السلفيين وهم لا يكفون عن التحدث عن الإسلام وباسم الإسلام، وكأن الإسلام حكر عليهم من دون المسلمين، وأنهم يتشبهون بالسلف الصالح من أصحاب النبى ﷺ والتابعين، سوف نجد أنفسنا أمام سؤال ملح للغاية:

من منهم عمرو بن العاص، ومن منهم خالد بن الوليد؟.

وليعذرنا من يعذر إذا قلنا أننا لا نجد فيهم خالد بن الوليد بل سوف نجد أن عمرو بن العاص هو الغالب على جمهرة كبيـــرة منهم؛ لأن فكرة الوطن غائبة عنهم وعن تفكيرهم.

إننا نهدى هذين الموقفين لهؤلاء الشيوخ الأجلاء من السلفيين لعلهم يراجعون أنفسهم والله يهدى من يشاء ويضل من يـــشاء. والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.

الفصل الثالث

الإسلام والتجديد

مقال للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

للمتنبى بيت شهير سار مسرى الأمثال، ولعلى لا أستطيع أن أورد البيت كاملاً لأنه مؤلم وجارح قاله فى شيوخ مصر وقتها ويبدأ البيت بـ (أغاية الدين..... الأمم).

فهل كان المتنبى يعنى بهذا البيت شيوخ عصره أم جملة من شيوخ عصرنا الذين يطلُّون علينا عبر الفضائيات؟!!.

لقد صدق المتنبى من جهة ولم يصدق من جهة أخرى؛ لأن من بين الشيوخ نفر قد أنعم الله عليهم ببصيرة أجادت فهم الإسلام على وجهه الصحيح نذكر منهم على سبيل المثال، المرحوم عبد المتعال الصعيدى.

ويخيل إلينا أنك لو سألت واحدًا من شيوخ الفضائيات عمن هو لما عرفه كثير منهم.

ولعلنا ونحن بصدد فصل قد كتبه فى مقدمة كتابه (المجددون فى الإسلام) سوف نورد تعريفًا به وبكتابه فى تصدير كتبه أحد أساتذة التاريخ بجامعة الأزهر.

على سبيل التصدير:

د. محمد صابر عرب[1]

أعتقد أن الهيئة العامة لقصور الثقافة وهى تعتزم نشر هذا الكتاب البديع (المجددون فى الإسلام)، تكون قد قدمت خدمة جليلة للقارئ المصرى والعربى، بل والمسلم على وجه العموم.

مؤلف هذا الكتاب هو الأستاذ عبد المتعال الصعيدى، وهو من علماء الأزهر الكبار (١٣١٣هـ - ١٨٩٥م / ١٣٩١هـ - ١٩٧١م)، ولد فى الدقهلية ودرس فى الجامع الأحمدى فى طنطا، وأكمل دراسته فى الأزهر، وشغل عدة وظائف إلى أن انتهى به الأمر أستاذًا بكلية اللغة العربية، ثم عضوًا بمجمع اللغة العربية، كان صاحب مشروع إصلاحى كبير فى التعليم والفكر الإسلامى، عرفته الأوساط الثقافية منذ أربعينيات القرن الماضى وحتى وفاته ١٩٧١م.

الأستاذ عبد المتعال الصعيدى كتب العديد من المؤلفات من أكثرها شهرة: (القضايا الكبرى فى الإسلام)، و(تاريخ الجماعة الأولى للشبان المسلمين)، ثم هذا الكتاب: (المجددون فى الإسلام)، وأعتقد أنه أهم مؤلفاته على الإطلاق، فقد تناول فيه -

---

(1) أستاذ التاريخ بجامعة الأزهر ورئيس مجلس إدارة الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية.

المجددون من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر الهجرى – من خلال دراسة عميقة، استعرضت عوامل النهوض والتدهور، بعمق ورؤية علمية رصينة.

لقد حدد المؤلف مشكلة المسلمين الحقيقية، فى جمودهم وجهلهم بالإسلام الحقيقى، وانحرافهم عن الغاية التى تسموا بالعلم والأخلاق، وأنهم بهذا صاروا عبئًا على الإسلام بدلاً من أن يكونوا قوة له.

وإذا كان المؤلف قد حدد المشكلة التى أعاقت المسلمين عن النهوض بدورهم فى إعمار الأرض فإنه قد حدد ملامح الطريق المؤدى إلى النهوض والإعمار، وهو أن نفهم الدين على حقيقته وأن نعمل به، وأن نضاعف من عنايتنا بإنماء حياتنا المدنية لكى يبقى دينًا طاهرًا نقيًّا، وأن تكون الدعوة إليه دعوة كريمة بريئة، تجتذب النفوس بما فى نفوس أهلها من طهارة وبراءة دون غلظة أو شدة.

لقد كان المؤلف محقًّا حينما أكد على حق الإنسان فى الاختيار قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩).

وإذا كان الإسلام قد سبق إلى إعلان هذا الحق باعتباره حقًّا أصيلاً من حقوق الإنسان – حق الحرية الدينية – فإن هذا

الكتاب يعد بمثابة قراءة واعية، جديدة للإسلام وخصوصًا فيما يتعلق بفقه المصلحة واتساع الاجتهاد، لكى يواكب الإسلام مشاكل الحياة المعقدة، وفكرة التسامح بمعناها الحقيقى.

لعل ما جاء فى هذا الكتاب من عالم أزهرى كبير يعد بمثابة رد على دعاة التشدد، وأصحاب الفكر الضيق وأنصار انقسام الأمة بدعوى حماية الإسلام.

لقد جاء هذا الكتاب البديع وكأنه قد لمس لب المشكلة التى يعانى منها المسلمون الآن حينما اعتقد بعضهم أن الإسلام قد بنى على العبادات فقط. وقد بالغ البعض فى أمر هذه العبادات حتى ابتدعوا فى الإسلام (رهبانية) فيقضوا حياتهم فى قيام الليل وصوم النهار، حتى إذا جاء موسم الحج هرعوا إليه كل عام، وكأن هذا هو كل الدين، بينما أغفلوا ما ينهض بالمسلمين فى دنياهم من علم وإعمار فى الأرض.

هذا الكتاب يقدم شرحًا وافيًا لفقه الحياة، فلا يقتصر الأمر فى الإسلام على ما يصلح الآخرة وحدها، بل إن ما يصلح الدنيا ويحقق مصالح الناس فى معاشهم لا يقل أهمية عما يصلح آخرتهم؛ لأن العبادة فى الإسلام، لا يقصد منها مجرد التعبد ولا مجرد الخضوع لله تعالى؛ لأن الله غنى عن عبادتنا، وليس فى حاجة إلى إظهارنا الخضوع له، وإنما يقصد منها فى الأغلب

أمور تعود علينا بالمصلحة فى دنيانا.

لقد كان المؤلف على معرفة دقيقة بحقيقة الإسلام ومقاصده النبيلة، حينما أكد على أن الله ﷻ قد شرع لنا هذه العبادات بهدف مصالح الناس الدنيوية، لكى يثيبهم عليها فى الآخرة، فالإسلام ليس دين عبادة فقط، وإنما هو نهضة دينية ومدنية، تستهدف النهوض بالمسلمين فى شتى مناحى الحياة.

لقد كان المؤلف وهو من علماء الأزهر الكبار على معرفة حقيقية بمقاصد الشرع، الذى استهدف النهوض بالمسلمين والارتقاء بمعارفهم الحياتية، علمًا وفكرًا وثقافة، وهذه هى وظيفة الإسلام الكبرى.

والرسول، قد كفل بهذه الغاية مصلحة الدنيا والآخرة، ولم يرجح فها كفة مصلحة منهما على الأخرى.

وإذا كان هذا الكتاب يخاطب المسلمين، الذين ارتضى بعضهم أن يأخذ من الإسلام ما يعتقد بأنه يحقق مصالحه الخاصة، اعتقادًا بأن الاكتفاء بالعبادة، بل والمبالغة فيها تضمن له الجنة، بينما أغفلوا الجانب الأصعب الذى يعود على الفرد والمجتمع عمومًا، وهو إعمار الأرض وشيوع الفكر الحر المستنير، فإن المؤلف كان معبرًا عن حقيقة الإسلام حينما مسَّ مشكلة كبيرة تتعلق بأدب الحوار، وخصوصًا مع غير المسلمين،

ولهذا يقول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ (الأنعام: ١٠٨)، فليس من الإسلام أن نشتم ما زين لهم، بل علينا أن نترفق فى الحوار معهم، وليس من وظيفة المسلم أن يعاقب مخالفيه فى العقيدة سواء بالقول أو الفعل، وإنما الوظيفة الحقيقية أن يكون المسلم قدوة فى أقواله وأفعاله، وليس من مهامه أن يفتش فى ضمائر الناس، وأن يتلمس عوراتهم.

الإسلام والتجديد

كثير من المسلمين يقرءون قول النبى ﷺ: (بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً)، فيفهمون أن الإسلام دين عبادة فقط كغيره من الأديان، وأنه لا يقوم إلا على هذه الأركان الخمس، ولا يطلب فيه منهم إلا أداؤها والتصديق بها، ثم يبنون على هذا الفهم الخاطئ أن نجاحهم فى دنياهم وآخراهم لا يكون إلا بأداء هذه العبادات، وأن عدم نجاحهم فيها لا يكون إلا بعدم أدائها؛ لأنه يكون بها رضا الله تعالى، ورضاه هو سبب النجاح فى الدنيا والأخرى، ولا حاجة معه إلى اتخاذ أسباب أخرى لهذا النجاح؛ لأن كل شىء بيد الله، فإذا أراد نجاح عبد فى دنياه أو أخراه حصل بمجرد رضاه، ولم يحتج إلى أسباب أخرى تؤدى

إليه.

وقد صار هذا الفهم الخاطئ بالمسلمين إلى التغالى فى أمر هذه العبادات، حتى ابتدعوا فى الإسلام رهبانية كما ابتدعها أهل الأديان قبلهم، وبنوا فيه ما يشبه الأديرة والصوامع من الخونقاه ونحوها، لينقطع فيها للعبادة من المسلمين من يريد الانقطاع إليها، فيقضوا حياتهم فى الذكر بتكرير النطق بالشهادتين، وفى قيام الليل وصوم النهار، حتى إذا جاء موسم الحج هرعوا إليه كل سنة، وكأن هذا هو كل الدين عندهم، فلا شىء فيه من عمل الدنيا، ولا شىء فيه مما ينهض بالمسلمين فى دنياهم من علم أو صناعة أو زراعة أو تجارة، وما إلى هذا مما يحفظ عليهم دنياهم، ولا يجعلهم فيها أقل نجاحًا من غيرهم، حتى لا يطمع فيهم طامع، ولا يستبيح حماهم عدو، فيملك عليهم أمرهم، ويضيع عليهم دينهم ودنياهم.

ولو صح هذا الفهم الخاطئ لم يكن هناك فى الإسلام شىء من التجديد، لأن أمور العبادة فى الإسلام لا تقبل التغيير، فالصلاة هى الصلاة لا تغيير فيها، وكذلك الزكاة والصوم والحج والنطق بالشهادتين، فلا يمكن أن نزيد فى الصلاة أو ننقص فيها، أو ندخل فيها شيئًا من التغيير، ولا يمكن أن نقدم أو نؤخر الصوم، ولا يمكن أن نغير أو نبدل فى الزكاة، وكذلك

أمر الحج.

ولكن هذا الفهم غير صحيح؛ لأن الإسلام دين جامع لصلاح الدنيا والآخرة، فلا يقتصر الأمر فيه على ما يصلح الآخرة وحدها، بل يدخل فيه ما يصلح الدنيا أيضًا، وقد يدخل فيما يقصد به صلاح الدنيا عباداته السابقة؛ لأن العبادات الإسلامية تمتاز على غيرها من العبادات بأنها لا يقصد منها مجرد التعبد، ولا مجرد إظهار الخضوع له، وإنما يقصد منها في الأكثر أمور تعود علينا بالمصلحة فى دنيانا، قبل أن تعود علينا بشيء فى أخرانا، والحقيقة فضل من الله تعالى أن يشرع لنا هذه العبادات لمصالحنا الدنيوية، ثم يثيبنا عليها فى الآخرة، ليزداد بهذا الثواب رغبتنا فى آدائها، ويكون لنا فيها رغبتان: رغبة لنفعها لنا فى دنيانا، ورغبة لنفعها لنا فى أخرانا.

فالإسلام ليس دين عبادة فقط، وإنما هو نهضة دينية ومدنية معًا، قصد بها النهوض بالعرب الذين اختير الرسول منهم أولاً، لينهضوا بسائر البشر ثانيًا، وقد كان العرب فى ذلك الوقت أمة أُمِّيَّة أقرب إلى الصلاح من غيرها؛ لأن الأمم التى تفسد على جهل أقرب إلى الصلاح من الأمم التى تفسد على علم، وقد صرح بهذا القصد من الإسلام فى قوله تعالى فى الآية (٢) من سورة الجمعة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو

عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، فهو فى هذا يؤثر الأميين على لفظ العرب، ليدل على أن القصد من هذا الدين محو أميتهم، والنهوض بهم فى الدين والعلم، وهذه هى وظيفة الإسلام الكبرى، وغايته العظمى فى هذه الحياة الدنيا، وبها كان خاتمة الأديان، وكان الرسول الذى بعث به خاتم الرسل؛ لأنه كفل بهذه الغاية مصلحة الدنيا والآخرة، ولم ترجح فيها كفة مصلحة منهما على الأخرى، كما كان ذلك فى الشرائع القديمة، فصلح لكل زمان ومكان، ولاءم كل الظروف والأحوال، وناسب كل الشعوب والأجناس من العرب وغيرهم من الشعوب الساميَّة، إلى الفرس وغيرهم من الشعوب الآريَّة، إلى البربر وغيرهم من الشعوب الحاميَّة؛ لأنه نظر إليهم جميعًا على سواء، وأتى إليهم بشرائع عامة عادلة، لا إيثار فيها لشعب على شعب، ولا تمييز فيها لجنس على جنس.

والإسلام من جهة هذه الغاية يتسع للتجديد فى كل زمان؛ لأنه إذا كانت غايته النهوض العام بالإنسانية فوسائل هذا النهوض تسير فى طريق الارتقاء، ولا تقف عند حد محدود لا تتعداه، وأمرها فى هذا يخالف أمر العبادات؛ لأنها تعتمد على الارتقاء فى العلم والعرفان، والإنسان لا يمكن أن يبلغ الكمال

فى العلم وإن امتد به الزمان، ووصل إلى آخر هذه الحياة، كما قال تعالى فى الآية (٨٥) من سورة الإسراء: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ ليفتح باب الارتقاء والتجديد فى العلم على مصراعيه، ولا يجعل للغرور بالعلم سبيلاً إلى نفوسنا؛ لأنه هو الذى يقف دون الارتقاء والتجديد فى العلم، ويؤدى إلى الجمود المذموم فيه.

وعلى هذا الأساس نبحث تاريخ المجددين فى الإسلام، وندرسه على أنه تاريخ نهوض المسلمين فى أمور دنياهم قبل أن يكون تاريخ نهوضهم فى أمور أخراهم، ولا نذكر فيه من المجددين إلا من يعمل لهذه الغاية، ولا نكتفى فيهم بما اكتفوا به فيهم من مجرد الشهرة فى العلم.

الفصل الرابع
مثال للمسلم الحق

إن الصورة التى تبدو عليها الشيوخ ولا أقول رجال الدين؛ لأن هناك فريقًا كبيرًا من رجال الدين من العلماء المستنيرين العارفين بأحوال البلاد وأخبار العباد ومعرفة الوضع الداخلى والخارجى. أما الشيوخ – حتى فى الأعمال السينمائية – فتبدو الصورة مختلفة كليًّا، إذ إن كل بضاعته الفكرية لا تعدو عما جاء فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وكل ما يمت إلى الدين بصلة، أما غير ذلك من أمور فلا نجد لديه ما يفيد أنه عالم بتلك الأمور، مما يعرض أمثال هؤلاء الشيوخ للسخرية فى كثير من الأحيان، ولعلنا نذكر أن طه حسين كال لشيوخ الأزهر من السخرية الشىء الكثير وخاصة فى كتابه (الأيام)، كما أكثر من غمزهم فى كتابات ومقالات شتَّى.

وربما ما جاء فى كتاب توفيق الحكيم الشهير (يوميات نائب فى الأرياف) عندما سمع أحد الشيوخ أن عالمًا غربيًّا – وهو أينشتين – والذى نطقه الشيخ شنتون قد تمكن من وزن السماء والأرض فاستنكر الشيخ ذلك وقال لمحدثه: هل وزنها بالكرسى أم بغير الكرسى؟ مستدلاً بعلمه من الآية الكريمة: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ

السَّمَوَات وَالأَرْض﴾.

والحقيقة أن الكثير من الشيوخ قد اكتفوا فى معارفهم ومداركهم وثقافتهم بما جاء فى الكتاب والسنة ولعل حجتهم فى ذلك قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ﴾ غير أن الصورة ليست بهذا التعميم فهناك من الشيوخ من أبلوا بلاءً حسنًا فى خدمة الإسلام والمجتمع فى نفس الوقت، ونفذوا ببصرهم وببصيرتهم إلى آفاق أرحب من مجرد تفسير الكتاب وشرح الأحاديث الشريفة إلى خدمة البلاد والعباد، ولعل الشيخ محمد عبده هو خير مثال لهذا النوع من الشيوخ الأجلاء، ومن قبله الشيخ حسن العطار وهو أول شيخ للأزهر نادى بوجوب تعليم الأزهريين العلوم العصرية.

وها نحن نقدم واحدًا من هؤلاء الشيوخ الأفذاذ ندين له بالكثير كمسلمين، ونعتبره مثالاً للمسلم الحق الذى جمع بين علوم الدين ومتطلبات الدنيا والحياة العصرية بما فيها من أسباب التقدم والرقى والمدنية، ومن العجيب أن هذا الشيخ قد توارى ذكره على الرغم من أنه قد خطا بمصر خطوات واسعة نحو التقدم والمدنية، ولولاه لكنا الآن فى عصر أشبه بعصر المماليك، لا حول ولا قوة ولا علم ولا مدنية لذلك البلد الأمين.

ولو وجدنا أن الشيوخ الأجلاء ساروا مسيرته أو كانوا على

شاكلته من اتساع الأفق وبعد النظر نحو غدٍ مشرق زاهٍ لكان حالنا الآن فى مصاف الدول المتقدمة فكرًا وعلمًا وتطورًا، ولكننا الآن لا نرى شبيهًا لهذا الرجل بل نرى كثرة من الشيوخ الذين يطالعوننا بوجوههم فى الفضائيات لا همَّ لهم إلا اجترار الماضى والتعليق على ما حدث من مئات السنين وكأنها قد حدثت اليوم، ويفيضون فى الأحاديث التى لها مسار واحد لا يتعداه وهو شرح وتفسير ما فى الكتاب والسنة، وهما من الموضوعات التى لا مزيد فيها لمستزيد.

ولعل المرحوم الشيخ الشعراوى قد كفى المسلمين عناء التفسير والشرح بأسلوبه السلس المتدرج من العامية حتى يفهمه الأُمِّىُّ، إلى الفصحى الذى يتوجه بها إلى المتعلمين.

ومن الغريب أن سؤالاً لم يخطر ببال هؤلاء الشيوخ – وهو سؤال بديهى – لمن تتوجهون بخطابكم الدينى وأحاديثكم عن فضل قراءة هذه السورة أو تلك، أو فضل هذا الشهر العربى أو ذاك وغيرها من الأحاديث التى يتلقّاها عوام الناس كأنها من أساسيات العقيدة؟.

الشيخ رفاعة الطهطاوى:

أما شيخنا الذى نعنيه هنا بالمسلم الحق فهو قد تعدى دور الشيخ إلى دور الرائد والمصلح صاحب الفكر المستنير

والبصيرة الثاقبة الذى رأى علل المسلمين وأسباب تخلفهم وانحطاطهم بالقياس إلى الدول المتقدمة فى عصره.

ونعنى بهذا الشيخ: رفاعة رافع الطهطاوى.

وفيما يلى نبذة عن حياته ومآثره فى خدمة الوطن نقلاً عن كتاب الدكتور جمال الدين الشيال (رفاعة الطهطاوى):

ولد رفاعة فى طهطا سنة ١٢١٦هـ - ١٨٠١م، وإليها ينسب، وفيها تلقى علومه الأولى، وفى سنة ١٢٣٢هـ - ١٨١٧م وفد على القاهرة، والتحق بالأزهر ومكث به نحو خمس سنوات ختم فيه دروسه، فلما أتم الحادية والعشرين من عمره أصبح أهلاً للتدريس، فدرس فى الأزهر، وكان يتردد أحيانًا على مدينته طهطا فيلقى على أهلها بعض دروسه.

وفى سنة ١٢٤٢هـ - ١٨٢٦م أوفدت مصر أول بعثة كبيرة إلى فرنسا، فسافر رفاعة ليكون إمامًا للبعثة - لا طالبًا من طلابها -، ولكن رفاعة كان ذا نفس طموحة وآمال عريضة، وحب للعلم، وشغف بالبحث، فأعد العدة بينه وبين نفسه أن يقبل على التحصيل منذ أن يغادر أرض مصر، حتى يعود إلى وطنه خيرًا مما غادره، وقد برَّ بوعده لنفسه، فحصل فى فرنسا الكثير، وكان أنبغ أعضاء بعثته، ثم كان زعيم النهضة العلمية فى عصره وقائدها بعد عودته، وهكذا أراد الله - كما يقول

المرحوم الأستاذ أحمد أمين – (أن يكون الإمام فى الصلاة إمامًا للحركة العلمية فى مصر).

وكان رفاعة أكثرهم انهماكًا فى عمله، وأشدهم إقبالاً عليه، ولم تكن تسعفه أوقات فراغه فى النهار، فكان يقضى معظم ساعات الليل ساهرًا بين كتبه ودروسه يقرأ ويتفهم ويترجم، حتى أصيبت عينه اليسرى بضعف ونصحه الطبيب بالراحة، ونهاه عن المطالعة فى الليل، ولكنه لم يمتثل لخوف تعويق تقدمه.

ولم يقنع رفاعة بالكتب التى تُشترى له على حساب البعثة، فقد شعر بلذة المعرفة، فأقبل يشترى كتبًا أخرى من ماله الخاص، ثم أدرك أن دروس أساتذته لا تكفى لإشباع نهمه، فاستأجر معلمًا خاصًّا يدرس له أكثر من سنة، وكان يدفع له أجره من مرتبه الخاص.

أرسل رفاعة إلى فرنسا ليكون إمامًا للبعثة، ولكن يبدو أن الأوامر صدرت فى آخر لحظة أن يسمح له بالدراسة، فإن أقبل ووفق فليوجه إلى إتقان الترجمة وذلك لأن ثقافته الأزهرية فى اللغة العربية ترشحه لهذا العمل إذا ألم باللغة الفرنسية وأتقنها، وهذا عمل واسع عريض؛ لأنه غير محدود، فحكومة ذلك العهد كانت مقبلة على الترجمة فى كل علم وفن: فى الهندسة والطب،

والفنون العسكرية، والتاريخ والجغرافيا.. إلخ، فواجب رفاعة إذن أن يقرأ كتبًا فى كل هذه العلوم، وأن يمرن على الترجمة فيها جميعًا، ويا له من واجب شاق!! ولكن هِمَّة رفاعة كانت همَّة عالية، فاستسهل الصعب، وأقبل ووفق.

وقد ذكر رفاعة فى رحلته العلوم والفنون التى درسها، وعين الكتب التى قرأها والتى ترجمها أو بدأ يترجمها فى باريس، ومنها نلحظ أن ثقافته كانت موسوعية فقد قرأ كتبًا كثيرة فى مختلف العلوم مع أساتذته، ثم قرأ كتبًا كثيرة أخرى وحده، وإنا لنحس فى جهوده التى ذكرها أنه ما كان يفرغ من قراءة كتاب فى أى علم من العلوم أو فن من الفنون حتى يقبل على ترجمته، يريد بذلك أن ينقل لمصر وبنيها هذا العلم الجديد عله يبعثهم إلى نهضة جديدة تنتهى بهم إلى أن يكونوا كأبناء أوربا حضارة ورقيًّا، ولكن أنَّى له الوقت لترجمة هذه الكتب جميعًا؟ ومع هذا فقد بدأ، وترجم كتبًا أو رسالات صغيرة، ثم ترجم فصولاً من الكتب الكبيرة، وكأنِّى به قد ترك الباقى حتى يعود لمصر، فيتم ما بدأ، وقد فعل؛ ولكن جهده جهد إنسانى محدود، ووقته وقت محدود، وهنا ترقب الفرص – بعد عودته – حتى سنحت فعرض مشروعه لإنشاء مدرسة الألسن، وقد أنشئت، واتسعت بعد إنشائها حركة الترجمة، واستطاع رفاعة أن يحقق بعض

آماله، ويؤيدنا فى هذا أن معظم الكتب الأولى التى ترجمها خريجوا الألسن هى الكتب التى قرأها رفاعة فى باريس، والتى كان يتمنى أن يترجمها بنفسه.

فى رمضان سنة ١٢٤١هـ غادر رفاعة الإسكندرية مرتحلاً إلى فرنسا، وفى رمضان سنة ١٢٤٦هـ غادر باريس عائدًا إلى مصر، خمس سنوات كاملة تغير فيها الشيخ عقلاً وعلمًا، وتفكيرًا وآمالاً، لكنه لم يتغير – بل لم يتأثر – دينًا وأخلاقًا. يقول على مبارك: ولم تؤثر إقامته بباريز أدنى تأثير فى عقائده، ولا فى أخلاقه وعوائده...

ومن أبرز جهود رفاعة فى خدمة بنى وطنه إنشاؤه مدرسة الألسن سنة ١٨٣٥م، وقد أنشئت هذه المدرسة تحقيقًا لاقتراح رفاعة الطهطاوى. يقول على مبارك: ثم عرض، أى: رفاعة، للجناب العالى أن فى إمكانه أن يؤسس مدرسة ألسن يمكن أن ينتفع بها الوطن، ويستغنى عن الدخيل، فأجابه إلى ذلك، ووجه إلى مكاتب الأقاليم لينتخب منها من التلامذة ما يتم به المشروع، فأسس المدرسة.

وكانت مدة الدراسة بالمدرسة خمس سنوات قد تزداد إلى ست سنوات، وفى سنة ١٢٥٥هـ – ١٨٣٩م اكتملت المدرسة، وأصبح بها ٥ فرق، وخرجت أول فريق من تلامذتها، وكان

تلاميذ الفرقة الأولى، أى: الأخيرة، يترجمون كتبًا فى التاريخ والأدب، ويقوم على إصلاحها أساتذتهم ومدير مدرستهم رفاعة رافع، ثم تقدم إلى المطبعة فتطبع وتنشر كتبًا يقرأها المدرسون والتلاميذ...

وقد عهد إلى رفاعة – إلى جانب التدريس – بإدارة المدرسة، وكان من واجباته:

١- أن يشرف على المدرسة من الناحيتين الفنية والإدارية.

٢- أن يدرس للتلاميذ الأدب والشرائع الإسلامية والغربية.

٣- أن يختار الكتب التى يرى ضرورة ترجمتها، ويوزعها على المترجمين من تلاميذ المدرسة وخريجيها الملتحقين بقلم الترجمة، ويشرف على توجيههم فى أثناء قيامهم بالترجمة، ويقوم بمراجعة الكتب وتهذيبها بعد ترجمتها، وكان رفاعة يرأس كل عام لجنة الامتحان التى تعقد لتلاميذ مكاتب المبتديان والأقاليم، فيسافر إليها فى النيل، ويمتحن تلاميذها، ويصحب المتفوقين منهم ليلحقهم بالمدرسة التجهيزية الملحقة بمدرسة الألسن.

وقد تعددت جهود هذا الشيخ الجليل الذى يعد مثالاً للمسلم المستنير الذى رأى وطنه يتردى فى محنة التخلف فأراد بوازع من الضمير الحىّ أن يسهم فى رفعته وانتشاله مما هو فيه من

تخلف؛ فألف وترجم كتبًا فى مجالات شتى فى العلوم والفنون والآداب، بالإضافة إلى كونه شاعرًا تغنى بالوطن فى الكثير من شعره.

ولعل الوطن كان هو الفكرة المسيطرة على جهد الشيخ دون أن ينس واجبات دينه غير أن الوطن هو أحوج ما يكون إلى النصرة والعون، وفى هذا المقام فإننا سوف نستعرض مثالاً للشيخ رفاعة بعنوان (حب الوطن).

حب الوطن (مصر)

كان رفاعة الرائد الأول فى هذا الميدان، فهو أول من كتب – نثرًا وشعرًا – فى معنى الوطن والوطنية وحب الوطن فى العصر الحديث، وأفكاره التى تدور حول هذه الموضوعات، والتى تنادى بالاعتداد بوطنه مصر والإشادة بأمجاده تجدها منتثرة فى فصول كتبه المؤلفة والمترجمة، وفى مقالاته الصحفية فى (الوقائع الرسمية) و(روضة المدارس) وفى مقطوعاته الشعرية المختلفة.

إرادة التمدن للوطن لا تنشأ إلا عن حبه من أهل الفِطَن، كما رغَّب فيه الشارع[1]، ففى الحديث (حب الوطن من الإيمان)،

---

(1) الشارع: واضع الشريعة.

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: عمَّر الله البلاد بحب الأوطان، وقال على كرم الله وجهه: سعادة المرء أن يكون رزقه فى بلده. وقال بعض الحكماء: لولا حب الوطن لما عُمِّرت البلاد غير المخصبة، وقال الأصمعى: دخلت البادية، فنزلت على بعض الأعراب، فقلت له: أفدنى، فقال: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل، وحسن عهده، ومكارم أخلاقه، وطهارة مولده، فانظر إلى حنينه لأوطانه، وشوقه إلى إخوانه.

ويكفى حب الوطن أن كراهة الإجلاء منه مقرونة بكراهة قتل الإنسان نفسه فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ﴾ (النساء: ٦٦).

وحسب المؤمن بحب الوطن أن رسول الله ﷺ حين خرج من مكة علا مطيَّته، واستقبل الكعبة، وقال: (والله لأعلم أنك أحبُّ بلد الله إلىَّ، وأنك أحبُّ أرض الله إلى الله ﷻ، وأنك خير بقعة على وجه الأرض وأحبُّها إلى الله تعالى، ولولا أن أهلك أخرجونى منك لما خرجتُ).

وبالجملة: فحبُّ الأوطان – على عظم الحسب وكريم الأدب – أبهى عنوان، وهو فضيلة جليلة، لا يؤدى حق الوفاء بها إلا من حاز الشمائل النبيلة، ولا تعين عليها إلا الهمم العلية والعزائم الملوكية، التى تقلد أعناق الأمة حلى المنة والنعمة، فتبعثهم على

التشبث بالأوطان، والتعلق بأذيال الإخـــوان، لاســـيما إذا كـــان الموطن منبت العز والسعادة والفخار والمجد كديار مصر، فهى أعز الأوطان لبنيها، ومستحقة لبرِّها منهم بالسعى لبلوغ أمانيها، بتحسين الأخلاق والآداب.

فكل مملكة تأخذ حظها الأوفر من التمدن مدة قرون وأزمان بحمية أهلها ومغالاتهم فى حب الأوطان، فقد شبه بعضهم حـــب الأوطان الحقيقى والغيرة عليها بحرارة جديدة محليـــة، متمكنـــة من الأبدان الأهلية، متى حلت ببدن الإنسان غلبت على الحرارة الغريزية، فلذلك إذا ظهرت الحمية الوطنية فـــى أبنـــاء الـــديار المصرية، وولعت بمنافع التمدنية، فلا جـــرم أن تـــذكو نارهـــا وتغلب على القوة الأولية، فيحصل لهذا الـــوطن مـــن التمـــدن الحقيقى – المعنوى والمادى – كمال الأمنية، فبقدح زناد الكـــد والكدح، والنهوض بالحركة والنقلـــة والإقـــدام علـــى ركـــوب الأخطار، تنال الأوطان بلوغ الأوطار.

كلمة أخيرة

إننا نهدى هذا الكتيب لإخواننا من شـــيوخ الـــسلفية لعلهـــم يدركون أن للوطن – وهو مصر – عليهم حقًّا.

فماذا فعلوا له؟.

وماذا هم بعد ذلك فاعلون؟.

هل سيبنون حضارة بالعلم والنور؟.

أم سيصنعون التخلف والجهل؟!!.

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة: السلفية والسلفيون والتعريف بهما	٣
السلفية	٤
السلفيون	٨
الفصل الأول: حوار وملاحظات وتساؤلات	١٤
الفصل الثانى: السلف الصالح.. ما لهم وما عليهم	٢٦
إسلام الصحابيين	٢٧
موقف عمرو بن العاص	٣٠
موقف خالد بن الوليد	٣٥
تحليل موقف الرجلين	٣٨
الفصل الثالث: الإسلام والتجديد	٤٢
الفصل الرابع: مثال للمسلم الحق	٥٢
الشيخ رفاعة الطهطاوى	٥٤
حب الوطن (مصر)	٦٠
كلمة أخيرة	٦٣
الفهرس	٦٤